الإفخارستيا[١]
سر الحياة
كيف نحيا الاتحاد بالله في القداس الإلهي؟ (٢)

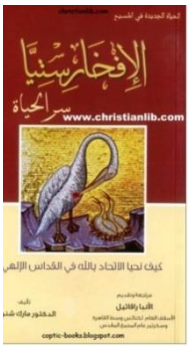

مراجعة وتقديم
الأنبا روفائيل
أسقف عام عين شمس والمطرية

تأليف
الدكتور مارك شنوده

نستكمل في هذا العدد ما بدأناه في تقديم فصول من كتاب: "الإفخارستيا، سر الحياة". هذا الكتاب الآبائي المُتميِّز، الذي يُحلِّق بقارئه في السماويَّات.

الفصل الرابع: الإفخارستيا، حياة الإيمان: الإفخارستيا تزيد وتُنمِّي الإيمان، كما يقول الرسول: «مُتَأَصِّلِينَ وَمَبْنِيِّينَ فِيهِ، وَمُوَطَّدِينَ فِي الإِيمَانِ، كَمَا عُلِّمْتُمْ، مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالشُّكْرِ» (كو٢: ٧). حينما نُصلِّي ما نؤمن به، فإن العبادة (وبالأخص الإفخارستيا) تُغذِّي الإيمان وتُحوِّله لحياةٍ مُعاشة.

الإفخارستيا هي سرُّ الإيمان، فنحن نتناول الله الظاهر في الجسد (في هيئة خبز وخمر). الإفخارستيا من جهةٍ، تحوي كل إيمان الكنيسة؛ ومن جهةٍ أخرى، لا يمكن فهمها بدون إيمان.

القداس الإلهي هو رحلة إلى الملكوت، رحلة لقاء الله بشعبه، رحلة تبدأ بخروج وتنتهي بدخول. إنها رحلة يُحرِّكها الإيمان، مثل رحلة إبراهيم إلى أرض كنعان. ونحن مدعوُّون مثل إبراهيم في كل قداس أن نترك كل اهتمامٍ أرضي لأجل أن نتقابل مع المسيح ليُعطينا عربون الملكوت، الذي كان يُرمَز إليه قديمًا بأرض كنعان.

الفصل الخامس: الإفخارستيا، حياة الصلاة: "الصلاة هي التصاق بالله، في جميع لحظات الحياة ومواقفها، فتصبح الحياة صلاةً واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب" (ق. باسيليوس الكبير). الحياة بعد القداس الإلهي يجب أن تكون امتدادًا للقداس نفسه: "ليتورجيا ما بعد الليتورجيا"، إذا جاز التعبير. فحياتنا بعد انتهاء الليتورجيا يجب أن تكون صدًى للإفخارستيا التي اشتركنا فيها.

نحن نُصلِّي في الإفخارستيا لأجل كل شيء في حياتنا، ولأجل كل ما هو حولنا، ونُدخِل كل شيء في الصلاة. فنحن بهذا نقوم بعملية تنقية لعالمنا، أو بالأحرى لذواتنا من الشوائب المتراكمة علينا، والتي من شأنها أن تكون طبقةً عازلة تُفقدنا الإحساس بالله وتحجب رؤيته في العالم.

---

(١) يقع الكتاب في أكثر من ٥٠٠ صفحة، وصدر عن مركز باناريون للتراث الآبائي، الطبعة الثانية، مارس ٢٠١٤.

الفصل السادس: الإفخارستيا، حياة النور: القداس الإلهي ليس هو إحياءً لذكرى تاريخية تمَّت في الماضي لا تخصُّنا، بل إن الإفخارستيا هي امتدادٌ لحياة ووجود المسيح وعمله في الكنيسة، واستمرارٌ لحضوره المُنير في المؤمنين. نحن في كل مرة نتناول فيها من جسد الرب ودمه، ننفصل عن الظلمة ونتحد بالنور، ننفصل عن الموت ونتحد بالحياة. ففي الإفخارستيا تستنير وتستضيء أذهاننا وقلوبنا، وتصبح أعمالنا أعمال نور: «فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ» (مت ٥: ١٦). إننا في الإفخارستيا نحيا عربون الملكوت، ونقتني النور داخلنا ويكون لنا الرب نورًا أبديًّا (انظر: إش ٦٠: ٢٠).

الفصل السابع: الإفخارستيا، حياة الشركة: سرُّ الإفخارستيا يقوم على أساس شركة المؤمنين معًا في جسد الرب، وهذه الشركة تُمكِّن الإنسان ليس فقط من الاشتراك مع أعضاء كنيسته المحلية، بل تُمكِّنه من الاشتراك مع كافة المؤمنين ومع السمائيين والذين رقدوا على الإيمان منذ البدء.

سرُّ الإفخارستيا هو نموذج للعمل المشترك بين الله والإنسان (Synergy)، مما يجعله عملًا "إلهيًّا إنسانيًّا". هو مثل جناحي الطائر، كلاهما يسند ويُكمِّل الآخر: «نَحْنُ عَامِلُونَ مَعَهُ» (٢كو ٦: ١).

إن سرَّ قوة الكنيسة الأولى وانتشارها يكمُن في اجتماعها معًا، وحياة الرسل في شركة الإفخارستيا. في الإفخارستيا يتحد الجسد (الكنيسة) بالرأس (المسيح) في وحدة لا تنفصم وشركة أبدية.

الفصل الثامن: الإفخارستيا، حياة الشفاء: الآباء يُعلِّموننا أن الإفخارستيا هي "ترياق الخلود" و"دواء لعدم الموت". كانت البشرية قبل التجسُّد تُشبه الأبرص الذي شفاه المسيح (مر ١: ٤٠)، الذي كان مُقيمًا في القبور، فالبشرية كانت مريضة بالخطية (البَرَص)، ومنعزلة عن السماء، بل مُنطرحة بعيدًا عن الله مثل المُصابين بالبَرَص. إلَّا أن الله، ونحن بعد خطاة، أرسل ابنه ليفتقدنا ويشفينا، يقول الكتاب: «أَرْسَلَ كَلِمَتَهُ فَشَفَاهُمْ» (مز١٠٧: ٢٠). كان تجسُّد الابن هو لشفاء البشرية من الموت والفساد. فالمسيحية هي ديانة شفاء، والكنيسة هي مستشفى، وليست محكمة.

الفصل التاسع: الإفخارستيا، حياة مُتجدِّدة: الإفخارستيا هي الطعام الذي به ننمو في الحياة الجديدة. الحياة الروحية هي حياة نموٍّ دائم في العلاقة مع الله، والله عندما خلق الإنسان خلقه لينمو في البرِّ والقداسة شيئًا فشيئًا. نحن في الإفخارستيا نختبر عبادة مُتجدِّدة يجتمع فيها الماضي

والحاضر والمستقبل معًا في آنٍ واحد. الكنيسة بليتورجياتها لا تشيخ في أيِّ عصرٍ من العصور، بل هي جديدة دائمًا لا تخضع للزمن. العهد الجديد الذي صنعه الله معنا بدمه، يُجدِّده معنا في كل إفخارستيا، مانحًا إيَّانا مراحم جديدة لا تزول كل صباح (انظر: مر ٣: ٢٢، ٢٣).

الفصل العاشر: الإفخارستيا، حياة أبدية: الإفخارستيا تُثبِّتنا في المسيح وتغرس فينا الحياة الأبدية. القداس الإلهي من بدايته إلى نهايته يتمحور حول الحياة الأبدية. إننا في الإفخارستيا نتناول دم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢)، ننال به تحقيق الوعد بالحياة الأبدية: «وَهذَا هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَنَا هُوَ بِهِ: الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (١يو ٢: ٢٥)، وهذا الوعد سيكتمل تحقيقه في السماء. إنَّ الإفخارستيا هي حركة خروج وانطلاق من الزمن، ودخول في الأبدية، هي أيضًا انجماع كل شيء وإرجاعه إلى الله (أف ١: ١٠)، «لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ» (يو ١١: ٥٢).

الفصل الحادي عشر: الإفخارستيا، حياة عُرسية: الإفخارستيا هي سرُّ المسيح الختن (العريس)، وأيضًا سرُّ العروس أي الكنيسة، ففيها يجتمع ويتحد العريس السماوي بكنيسته. نحن في الإفخارستيا نتناول المسيح الذي قدَّم نفسه ذبيحةً لأجلنا، كفعل محبة وتقدمة من الثالوث: فالآب بذل ابنه الوحيد، والمسيح قدَّم ذاته بإرادته، والروح القدس يُقدِّم كل ما هو للمسيح لنا. وبذلك يعود الإنسان إلى محبته الأولى (رؤ ٢: ٤)، أي إلى الله وإلى الآخر من خلال الله. ومِن ثمَّ يُقدِّم الإنسان ذاته ثانيةً لله "في المسيح" كتقدمة محبة من الإنسان للثالوث.

وبعد عزيزي القارئ، هذا العرض لهذا الكتاب المُتميِّز، هو غيضٌ من فيض، وبحرٌ من محيط، لتقديم بعض من جوانب "سرِّ الإفخارستيا"، سر عشاء عُرس الخروف (رؤ ١٩: ٩).

نودُّ في الختام أن نشرح أيقونة الغلاف، فهي لطائر البجع، وهو يطعن جنبه ليُطعِم صغاره من دمه. ويُعَدُّ طائر البجع أحد الرموز التي استُخدمت للتعبير عن الإفخارستيا منذ القرون الأولى للمسيحية، لأن من طبيعة هذا الطائر أنه في حالة عدم توفُّر الطعام الكافي لفراخه، يقوم بجرح نفسه وإطعام صغاره بدمه! أليس في هذا صورة رمزية للمسيح الذي يُطعم المؤمنين من دمه في الإفخارستيا؟!